مجلة الرائد

العدد : ٢٣٨ الموافق في شعبان ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/١٠ ميلادي

عنوان المقال : وقفات مع منهج تزكية النفس بالإسلام *٢/٤*	الكاتب : أ. متولي موسى

تناولت في المقالة الأولى مقدمة قصيرة بين يدي الموضوع ، حَدَدّت فيها معنى التزكية المطلوبة بأنها تطهير النفس البشرية بالإيمان باللّه تعالى ، ووضحت أن تزكية النفس الإنسانية لا تتحقق في واقع الحياة إلا إذا تحقق الإنسان في أقواله وأفعاله بالعبودية لله تعالى ، وهي الغاية التي خلق اللّه تعالى الإنسان من أجلها في الحياة الدنيا حيث قال تعالى : { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** } [الذاريات : ٥٦] .

❄ ❄ ❄

ثالثاً : اتخاذ الأسباب لتحقيق سلامة القلب

لما كانت حياة الإنسان بكل أبعادها مدارها على القلب ، فقد أرشد الخالق ﷻ العليم بخلقه إلى ارتباط سلوك الإنسان القولي والفعلي بما انطوى عليه القلب من اعتقاد ؛ وعليه فقد عني الإسلام أشد العناية بسلامة القلب وامتلائه بالاعتقاد القائم على الإيمان باللّه تعالى واليوم الآخر ، فالقلب الذي يعتبر محل التدبر والتعقل ، إذا آمن باللّه تعالى واليوم الآخر ، انعكست آثار ذلك على سلوك الإنسان سكينة وطمأنينة وإنابة ورحمة ورأفة .. الخ .

أما قلب الكافر أو المنافق فهو مريض مرض الموت ، الذي يجعل الإنسان فريسة للوسواس الخناس ؛ فيسقط الإنسان في حبِّ الشهوات والدنيا ، ويبتعد عن الخُلق العظيم ، ويتردى في أسباب التدسّي والتدني والطغيان في القول والفعل . قال تعالى : { **فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۞ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى** } [النازعات : ٣٧-٣٩] ، وقال سبحانه : { **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** } [البقرة : ٨-١٠] ، وقال عزَّ وجلَّ : { **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ** } [التوبة : ٤٦] .

ومن أهم أسباب التحقق بسلامة القلب ما يأتي :

① صحة الإيمان باللّه تعالى

لا بد للمسلم من الأخذ بالأسباب التي تقوى إيمانه باللّه تعالى وتحويل تعاليم الإسلام التي وردت في الكتاب والسنة إلى حياة وسلوك ، وذلك بتدريب النفس على القيام بالتزام الإسلام قولاً وفعلاً ، ومجالسة الأخيار من العلماء وطلبة العلم ، والبحث عن الصحبة الصالحة ليحشر نفسه معهم ، وبالجملة : توفير البيئة الثقافية والسلوكية الصالحة التي تربطه اعتقاداً وعملاً باللّه الواحد الأحد ، وتأمل الإشارة إلى ذلك في الكتاب والسنة على سبيل المثال :

❑ قال اللّه تعالى : { **قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** } [الحجرات : ١٤-١٥] .

❑ قال رسول اللّه ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة ابن اليمان أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ : عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا ، فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا** (١) **كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا** (٢) **، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ** » .

② استحضار خشية اللّه تعالى في السرّ والعلن

المؤمن يعتقد أن اللّه تعالى مع الإنسان على الدوام ، يراه ويسمعه في سرِّه وعلانيته ، وهذا الذي يعرف بالخشية ، ومما يزيد هذا الشعور عند الإنسان الاعتقاد في وجود الجنة والنار في الحياة الآخرة ، أي الإيمان بالثواب والعقاب على الأعمال الظاهرة والباطنة ، فهذا الشعور هو الذي يدفع الإنسان للعمل

(١) مرباداً : شيء من بياض يسير يخالط السواد .
(٢) مجخياً : مائلاً ، منكوساً .

الصالح ويُبْعده عن ارتكاب المعاصي والذنوب ، وكل حي عاقل إذا تدبر القرآن فسوف يجد من نفسه دافعاً إلى التحقق بهذه الخشية ؛ قال اللّه عزَّ وجلَّ : { **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ...** } [الفتح : ٤] ؛ وقال ﷻ : { **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۞ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ** } [ق : ٣١-٣٤] .

③ اعتقاد تقلب القلوب واتخاذ الأسباب لسلامة القلب

سبقت الإشارة إلى أن حياة الإنسان مدارها على القلب ، وعليه فلا بد من اعتقاد الإنسان بقيمة هذا القلب وحياته أو موته وسبل تحقيق ذلك ، وليس للإنسان سبيل للوصول إلى ذلك إلا الرجوع إلى ما أخبر به خالق القلوب ومُقَلِّبها ﷻ ، حيث أخبر سبحانه في الوحي - الكتاب والسنة - كيف يصبح القلب سليماً ؟ وكيف يمرض ؟ بل وكيف يموت ؟ والآيات والأحاديث في هذا الشأن كثيرة ، ولكنني سأكتفي ببعضها للتدليل على ما أشرت وذكّرت به :

❑ قال تعالى : { **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ...** } [الأنعام : ٢٢] ؛ فالميت هنا الكافر الذي لا يهتدي بنور الوحي ، والحيّ هنا المسلم الذي اهتدى بنور الوحيّ .

❑ وقال سبحانه على لسان إبراهيم ﷺ : { **وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۞ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** } [الشعراء : ٨٧-٨٩] .

❑ وأرشد الخالق سبحانه إلى أن القلب قد يصاب بالعمى إذا فقد نور الوحي فقال تعالى : { ... **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } [الحج : ٤٦] ، وعند ذلك لا ينتفع الإنسان بما يؤمر به من خير وما يحذر من شر ، حتى أن هذا الإنسان يمكن وصفه بالصمم والبكم مصداق قول اللّه عزَّ وجلَّ : { **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**} [الأعراف : ١٧٩] .

ولقد أدرك القدوة والأسوة ﷺ أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ،

ولذلك كان يكثر من الدعاء : « **اللَّهم يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ** » رواه الترمذي في كتاب القدر .

④ **الصدق مع اللَّه ومع البشر**

أقصد بالصدق أن يكون ظاهر الإنسان موافقاً للباطن ، والذي ينعكس في صدق العبودية لله تعالى والصدق في القول والعمل مع البشر من حوله ، ولقد أمر اللَّه تعالى المؤمنين بالتحقق بكل ذلك فقال سبحانه : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } [التوبة : ١١٩] . وبشر اللَّه عزَّ وجلَّ بعاقبة الصادقين في الآخرة ، فقال سبحانه : { ... **هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } [المائدة : ١١٩] .

فضلاً عن أن الصدق في القول : تعبير عن شخصية الإنسان المتميزة بالوضوح والشهامة والمروءة ، فلا يلجأ للكذب إلا لئيم خبيث النفس ، ضعيف الشخصية ، ولقد دعت الرسالات إلى الخلق الكريم ، ولما وصف اللَّه تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات اللَّه تعالى وسلامه عليهم أجمعين - وصفه بقوله : { **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** } [القلم : ٤] .

ولقد أرشد اللَّه تعالى أنه يثيب الصادقين كما يعاقب المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، أي أصبح الكذب هو السمة الغالبة على سلوكهم ، فقال عزَّ من قائل : { **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** ... } [الأحزاب : ٢٤] .

والحديث عن الصدق هنا باعتباره من أمهات الفضائل فمن الصدق تتولد شعب عظيمة مثل الرضا والزهد والصبر والقناعة .. إلخ ، كما أن الحديث عن الصدق لا تتضح آثاره ونتائجه إلا إذا تحدثنا عن الكذب ، فكما يقال : " وبضدها تتميز الأشياء " ، وضد الصدق الكذب وهو مفسدة أي مفسدة ، فكما أن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار ، قال المغيرة ﷺ سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** » رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

عنوان المقال : وقفات مع منهج تزكية النفس بالإسلام *٢/٤*	الكاتب : أ. متولي موسى

ولقد حذر رسول اللّه ﷺ في أكثر من حديث من عاقبة الكذب في الدنيا والآخرة ، فقد يكون في الدنيا سبباً للفتن وتضييع الحقوق وضياع الأوقات ، ولذلك على المسلم أن يلتزم الصدق في القول والعمل وأن يبتعد عن الكذب على جميع المستويات واللّه وحده هو الموفق لكل ذلك .

- للكلام صلة -